بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ المجلس (٠١٤)

"الباب الثالث (الديانة الفينيقية -نظام الدولة القرطاجانية- العمل القرطاجني في العمران والحضارة)"[1].

[٦ – الديانة الفينيقية[2]]

---

[1] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللّٰهُمَّ صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد، وعلى صحبه وآله أجمعين، اللّٰهُمَّ لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللّٰهُمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وألحقنا بالصالحين.

وبعد: يقول الإمام مبارك الميلي في كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث، في الباب الرابع وهو ما يتعلق بالفينيقيين.

[2] هذا الأمر من الأدلة على لزوم التدين، في معرض الرد على المخالفين الذين ينكرون وجود الله ﷻ والذين يعتقدون أن لهذا الكون موجد، ولكن لا يلزمهم شيء، أو يعتقدون أن لهذا الكون خالق، ولا يلزمهم أن يتدينوا له، فهؤلاء في نقاشهم ومناقشتهم طرق، ومن ذلك ما أشار إليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله **(الديانة الفينيقية)** ووجه ذلك أنك ما درست أو طالعت كتاب من كتب التاريخ، أو الكتب التي تنقل أخبار السابقين إلا وتجد لهم ما يدينون به، وما يتدينون به، والحفريات والبحث في العلم الجيولوجي يجدون آثارا للمعابد، والأماكن التي تُتخذ فيها طقوس معينة، وتكون مقدسة يتعبدون فيها عبادات سواء كانت باطلة، أو شركية، أو عبادات حق.

فوجه الاستدلال ارتكاز التدين في نفوس الناس، فكلهم فطرتهم مجبولة على هذا على، فالذين يزعمون إنكار الخالق أو من يثبت الخالق، ولكن ينكر التدين، يردّ عليه بأوجه ومنها هذا، فهذا حال يعم جميع الناس، ولا يشذ عنه إلا الشواذ، وفي حقيقة أنفسهم يقرّون كما قال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً}النمل١٤، فهذا دليل ووجه من الأوجه التي يرد بها على اللادينيين، أو الملاحدة الذين ينكرون وجود الله.

كان الفينيقيون وثنيين يعبدون الشمس والقمر. الشمس يتخذون لها تمثالا يدعى "بعلا"[3] والقمر يتخذون له تمثالا يسمونه "استارتي" أو " بعليت" (مؤنث بعل)[4]. وكانوا يقيمون لهذين الإلهين تمثالين بكل مدينة من مدنهم.

والشمس عندهم إله السماء والأرض، يرونه غضوبا شديد الانتقام فيتوسلون لرضاه بتقريب القرابين له. وقد تكون تلك القرابين أناسي وأكثر ما تكون من أبناء الملوك وسراة الأمة.

يحضرون القربان البشري[5] أمام التمثال ومعهم آلات الطرب يغنون عليها، ثم يلقونه في النار المقدسة التي تجعل لذلك التمثال، وقد تكون أم هذا القربان حاضرة تنظر إليه من غير جزع يلحقها[6].

والإله يمثلونه تارة بثور، وأخرى برجل، وأخرى برجل رأسه رأس ثور.

والقمر لديهم إله الحب والجمال، يتصرف في كل ما يحدث وما يفنى ولذلك يعبدونه تارة بالفرح وأخرى بالحزن. وكانوا يمثلون القمر بصورة امرأة بيدها حمامة وعلى رأسها من شعرها صورة هلال[7].

---

[3] وقد جاء في الكتاب في قوله تعالى {أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ }الصافات١٢٥، وبعل، هذا اسم صنم، وتمثال يعبد من دون الله، كان منتشرا بأرض اليمن.

[4] فيه إشارة إلى التأنيث بالتاء وهذا كله يرجع إلى أصل لغة العرب.

[5] يعني إنسان يتقربون به إلى هذه الآلهة.

[6] هذا الولد الذي يقرب إلى هذا الإله أمه تنظر وتفرح بذلك كونه قربانا لإلههم ويلقى في النار. وهذا دليل على تعظيمها لهذا الإله الذي تعبده من دون الله، هذا التعظيم الواقع في قلبها، والنظرة المقابلة نقول إن المسلم الذي يعظم الله تبارك وتعالى تهين أمامه العصاب، في سبيل طاعة الله تعالى، فيقدم على طاعة الله ﷻ ولا يرده عن ذلك رادّ، ولهذا قد نقرأ في تراجم الصحابة الكرام، وأئمة السلف في هذا الباب، فنجد من الأمور العجائب، ولكن إذا وقر الإيمان في القلب وتمكن منه، فإنه يدفع صاحبه للتضحية في سبيل الله تعالى، وإذا قرأنا سيرة النبي ﷺ وكيف كان الصحابة معه، وكيف يحيطون به ويحصنونه، ويحمونه، ويفدي الواحد منهم نفسه، دون أن يصاب ﷺ بشيء، وتجد الواحد يقدم من غير تردد طاعة لله تبارك وتعالى تعلم ما كان في قلوبهم من التعظيم لله ﷻ.

[7] لهذا العلامات التجارية التي تجدونها منتشرة هاهنا وها هنالا يظن الإنسان أنها جات من عبثأو أنها عبارة عن شيء اعتباطي، يعني صاحب العلامة أغمض عينه ورسم وطلع بذلك شيء! فجعله علامة للسروال أو الحذاء أو الفانيلة ... وإنما الغالب أنها علامات لها مرام ومقاصد، ولها دلالات، فينتبه، فما كان فيه معنى سليما لا حرج فيه لكن أن

ولهم غير هذين الإلهين آلهة اخرى ولها شبه قوي بآلهة الكلدان[8].

وقد أخذوا عن غيرهم في الديانة. ولما نزلوا ليبية تأثروا بعقائد البربر[9]. وأخذوا إلههم "عمون" وسموه بعلهمون وعبدوه حسب تقاليدهم، وصنعوا له تماثيل أخرى.

ش2 رسم الاله بعلهمون

يرفع على نفسه، ويعلق ما فيه علامة فيها ذم وقبح وشرك، ينتبه لهذا، فإذن ما يرمزون له يمثلون تارة بثور، وأخرى برجل، وأخرى رجل رأسه رأس ثور، وهذه الرسومات موجودة في بعض الثياب، ولها دلالات.

وفي القمر قال **(يمثلون القمر بصورة امرأة بيدها حمامة)** انظر إلى الخلفيات هذه الي كانت عندهم **(وعلى رأسها من شعرها صورة هلال).**

[8] الكلدانيون كانوا يعبدون الكواكب في زمن إبراهيم ﷺ فشركهم كان شركا يتعلق بالفلك، بالنجوم والكواكب، يعبدونها ويتوسلون إليها ويرون أن التأثر والتأثير منها، وهذا من الشرك بالله ﷻ.

وهذه الكواكب والنجوم لها ثلاثة فوائد ذكرها الله في كتابه {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}النحل١٦، وقال تعالى {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ}الملك٥، فهي علامات يهتدى بها، وتزين بها السماء، ورجوما للشياطين، هذا الذي يستفاد منها، فعلامات يهتدى بها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وبعض التوقيتات، هذا لا حرج، علم التسيير والوقت، أما إذا كان يعتقد فيها التأثير، فهذا الذي لا يجوز.

[9] وسبق أن ذكرنا عقائد البربر وأنه كان فيها وثنية.

وكانت لهم أعياد يحتفلون فيها بآلهتم، ويقربون لها القرابين من البشر والبقر والغنم والديكة ومما يتقربون به أيضا الصيام[10].

وإذا كان البربر أثروا على الفينيقيين في المعتقد فان هؤلاء أثروا عليهم في ذلك أيضا، وسترى ذلك في الباب التالي إن شاء الله[11].

ونحن نرى للعامة اليوم عقائد لها اشبه ببعض عقائد البونيقيين[12] ولكن يبعد أن تكون موروثة عنهم لقدم العهد جدا ووجود الدين الإسلامي[13]. وانما الجهل بأصول الدين يجر في كل عصر إلى التمسك بأوهام وخيالات قد تتشابه مع تباعد الأعصار[14]. وإذا كان مرجع الديانة الى الخيالات كانت من قبيل

---

[10] يعني لهم أعياد وعادات وهي من الديانات يتقربون بها إلى إلههم وصنمهم ووثنهم. ولهذا العادات التي تنتهي إلينا لابد أن نتبينها لنعرف هل هي منبثقة عن عبادات شركية، وأمور كفرية وعبادة الأوثان والأصنام أو لا، لنقطع دابر الشرك، لأن النبي ﷺ جاء لذلك {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل٣٦، {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ}الزمر١١، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}الأنبياء٢٥، وجاء ﷺ ينهى عن الشرك، وأعظم ما نهى الله ﷻ عنه هو الشرك، والذي لا يغفره الله ﷻ هو الشرك إذا مات صاحبه عليه ولم يتب، ولهذا حذر النبي ﷺ من كل وسائل الشرك، وطرقه، ومقاصده، وبمضي الزمان يتناسى العلم، فالأشياء التي تنتهي إلينا لابد أن نعرف أصلها، فإن كان شيئا من الأمور المباحة فلا حرج، لكن إذا كان منبعثا من عقائد شركية فإذا تغافلت عنه ونسيته ولم تبين فإن بمضي الزمن يتناسى العلم، فتلك الأمور الشركية تعود وترجع وتستقر في الناس.

وابن مرة لا يتعب، الشيطان يوسوس للناس، وقد أتى قوم نوح وكذب عليهم وقال إن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصور لود وسواع ويعوق ويغوث ونسر، فلبس عليهم، فكيف إذا كان الأمر موجودا وتنوسي وغفلنا عنه فإن الشيطان يغتنم الفرص وينشر في الناس هذه الأمور الشركية الخطيرة، فينبغي التنبه لهذا.

[11] يعني كان التأثير متبادلا بين الطرفين.

[12] قلنا هم فرقة من الفينيقيين نزلوا على السواحل والحدود.

[13] يعني هناك بعض العادات التي هي من العادات الشركية، والكفرية، التي نجد لها شبها بما يتناقل من ديانة وعقائد الفينيقيين وغيرهم، هل وصلت إلينا منهم أو لا؟ يقول: أمر بعيد، وهذا لأمرين: طول الزمان، ووجود الدين الإسلامي الذي جاء بالعقيدة الصالحة، لكن هذا لا يبعد ولا يمنع من أن يبقى الأثر يعني قد ينتقل للناس لسبب أو آخر.

[14] لما قال إنه بعيد أن تكون هذه الأمور التي توجد في الناس من الشركيات تشابه ما كان عليه الفينيقيون وغيرهم، بعيد أن تكون مأخوذة منهم لطول الزمان ولوجود الدين الإسلامي الذي أحيى العقيدة الصافية الصحيحة عقيدة

الشعر، والشعر- كما قيل- ميدان والشعراء فرسان فقد يقع الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر[١٥].

التوحيد. -قال- ولكن لما يكثر الجهل، ويجهل الناس أمور دينهم وأصول دينهم، فإنهم يتمسكون بالأوهام وبالأمور الخيالية، وذلك مما يكون سببا للتشابه فيما يقعون فيه مع من كان قبلهم ولو بعُد الزمن.

[١٥] يعني ما دام قد خلا للناس، ولم يعرفوا ولم يجدوا الدين الحق، وجهلوه وتركوا أصوله، فيصيرون متمسكين بالخيالات، والأمور الخيالية من قبيل الشعر، فالشعر كثيرا ما يتخيل صاحبه أشياء، وهذا ميدان واسع، ولهذا يقع التشابه.

[٧ - نظام الدولة القرطاجنية][16]

الدولة بنظامها الإداري والسياسي، فقوتها وضعفها وقدرتها وعجزها على حسب ذلك النظام ودرجة إحكامه وإتقانه[17].

ولم يكن للفينيقيين بفينيقيا دولة تجمع تحتها مدنهم وتتخذ من بنيها جيشا حربيا تهاجم به الضعفة أو تدافع به الأعداء. بل كانت مدنهم هنالك مستقلة بعضها عن بعض يحكم تلك المدن رؤساء يعرفون بالأشفاظ (القضاة)[18].

---

[16] تكلم على نظام الدولة القرطاجينية يعني الدولة التي كان عليها الفينيقيون ونزلوا في قرطاجنة، وبنوا لهم هناك حصنا حصينا كان مرسى لقدوم سفنهم، ونزولهم، والمبادلات التجارية، وغير ذلك. فما هو النظام الذي كانوا عليه؟

[17] يعني مما يجعل الدولة قوية أو ضعيفة ما يتعلق بنظامها الإداري والسياسي، هذا بالنظر إلى ما كانوا عليه سابقا قبل البعثة الإسلامية، لكن بعد البعثة لا شك ولا ريب أن الدين له مكانته، ومع ذلك يقال: قوة الدولة في نظامها الإداري والسياسي.

وجه ذلك أن الإداري من الإدارة يعني ما يدار داخل البلد من الأمور فإذا كانت قوية في ذلك كان أدعى إلى نظامها، ورزانتها، وأن تكون مرتبة منظمة مستقرة، فتُدار الأمور على ما يرام، تدار الأمور على ما يرام، وبالتالي لا تكون هناك فلتات، وانتقادات واعتراضات واحتجاجات ونحو ذلك، لأن الإدارة منظمة ومنضبطة، فلا يكون سبيلا لفجوة تثير القلاقل في البلد، كلما كان البلد مستقرا كان أدعى لأن يقوى أكثر.

والنظام السياسي، السياسة مأخوذة من ساس يسوسه أي قاد، ورتّب أموره، فلا بد لسياسة الدولة أن تكون مستقرة وقوية -والمراد بذلك سياستها الداخلية والخارجية لأنه لابد من سياسة داخلية فيما بين الأفراد، والجماعات والمؤسسات ونحو ذلك، وأيضا في خارج البلد مع البلدان الأخرى المجاورة والبعيدة، الموافقة والمخالفة، المسالمة والمعادية، المعاهدة والمحاربة- فقوة هذه السياسة مما تجعل البلد قويا مستقرا.

[18] هذا حال الدولة الفينيقية دولة تجارية علمية، ما كانت تبحث عن أن تجند جيشا قويا لتعتدي على غيرها، ولا تتجهز للدفاع عن نفسها، فكانت مدنا يحكمها جمع من القضاة.

ولما تأسست قرطاجنة قامت بها دولة عظيمة ذات دستور، إن لم يكن أحسن دساتير ذلك العصر فهو من أحسنها[١٩]. ناهيك أن أرسطو الفيلسوف اليوناني واضع علم المنطق أعجب به وأثنى عليه[٢٠]. وقد أدرك هذا الفيلسوف قرطاجنة في أيام عظمتها إذ كان في القرن الرابع (ق. م).

---

[١٩] يعني كان لها نظام ودستور تمشي عليه، إذا لم نقل هو أحسن دستور فهو من أحسن الدساتر، الذي ينظم البلد، لا شك أن يكون كذلك لأن لهم مؤهلات كثيرة، أولا المنطقة التي جاؤوا منها أصلهم من العرب، أضف على ذلك نزولهم على كثير من البلاد، طروقهم كثير من البلاد، كان شأنهم التجارة البحرية، فزاروا كثيرا من البلدان وخالطوا كثيرا من الناس، وعايشوا ورأوا، فإذا استقر ملكهم ببلد فلا شك ولا ريب أنهم عند إرساء نظمه تحيط بهم أفكار كثيرة في الشيء الواحد.

[٢٠] يعني أعجب بدستور دولة قرطاجنة، أرسطو هذا فيلسوف يوناني هو الذي وضع علم المنطق. يعني وجد في عصره كما هو موجود الآن من ينكر المحسوسات، وهؤلاء لا يزالون إلى الآن، بل منهم من لا يؤمن بأي شيء كائنا ما كان، حتى الشيء الحسي، نقول هذه الطاولة موجودة هنا، هي طاولة بحسب ما يرى هو لكن إذا خرج قد تبقى طاولة وقد لا تبقى، هذا موجود، وموجود حتى في التطبيق العملي، لا أدري إن رأى أحدكم ألبسة مكتوب عليها (١+١=٥) أو (٢+١=٤)!! تقول ١+١=٢ يقول هذا عندك، ويناقشك، فيعبرون على ذلك بما ذكرت، وتوجد ألبسة تباع لعلكم ما اطلعتم عليها تباع في الدول الأجنبية -عندها كل البلايا- الحمد لله عافانا الله مما ابتلاهم به.

أحدهم يناظر أحد المسلمين في قضية إثبات وجود الخالق، هو ملحق ويلبس لباسا مكتوب فيه ٢+٢=٥، وهذا من دعاة هذه القضية.

فهذا أرسطو عاقل يناقش هؤلاء، هذا الذي وُجد وهو طائفة تنكر الأمور المنطقية، العقلية، الحسية، فلا يؤمن إلا بما هو محسوس بالحواس الخمس، ومنهم من لا يؤمن بذلك أصلا، فدفعهم ذلك إلى وضع هذا العلم الذي هو علم المنطق، وهو في الحاصل يرتكز على أمرين: التصور والتصديق.

١= التصور هو إدراك معنى المفرد، يعني عندما أقول لك (نظارة) تدركها، ولما أقول لك زيد تتصور وفي ذهنك زيد، ولما أقول لك (قائم) تتصور معنى قائم

٢=ولما أقول لك (زيد قائم) تتصور نسبة القيام لشخص اسمه زيد. زيد قائم هذا يسمونه التصديق.

فهذا العلم مرتكز على هذين الأمرين، أولهما التصور لإقناع هؤلاء بأن الأشياء تتصور في الذهن، وفي الخارج تنزّل عليها الأحكام، الذي هو التصديق، هذا حاصل هذا العلم.

لم تكن قرطاجنة شاذة عن الدول المعاصرة لها في تقسيم الأمة إلى طبقتين: السراة[٢١] والسوقة[٢٢]. بل كانت مثلها في ذلك واشتهر بها من طبقة السراة أسرتان: الماغونيون والحنونيون، ومن طبقة السوقة البرقيون.

شكل الحكومة: كانت حكومة قرطاجنة جمهورية على رأسها أسرتان تدير إحداهما الجندية وسائر الشئون الحربية[٢٣]، وتقوم الأخرى بالعمل[٢٤] والاقتصاد وسائر وجوه العمران[٢٥].

وللحكومة مجلسان: أحدهما مجلس القدماء أو الشيوخ به (٢٨) عضوا منتخبا من طرف الأمة. ويشترط في عضو هذا المجلس أن يكون من الأسر الأصيلة في البونيقية[٢٦]. فهو متركب من الأعيان ويؤازره[٢٧] أرباب رؤوس الأموال وأصحاب التجارة والصناعة والفلاحة[٢٨].

وهو مجلس ارستقراطي يؤيد نفوذ الطبقة العليا من الأمة على الصعاليك منها ومتوسطي الحال[٢٩].

---

[٢١] سراة القوم أعلاهم.

[٢٢] التبع. وفي الحديث (كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم سوقا) يعني من سيق معهم ولكن ليس خارجا لهدم الكعبة.

[٢٣] أسرة تقوم على أمور الجند وأمور الحرب.

[٢٤] الظاهر (على العمل).

[٢٥] يعني حكومة دولة قرطاجنة فيها أسرتان: أسرة تشتغل وتهتم بالأمور الجندية والأمور العسكرية والحربية، وأسرة تقوم على أمور العمل والاقتصاد ووجوه العمران، هذا يدل على أن هذين الجانبين في هذه الدولة مهمان.

[٢٦] يعني هو ووالداه وجده وزوجته ..الخ.

[٢٧] يعني يعينه ويقوّيه.

[٢٨] هذا أمر مهم في الدولة، إدارة أمور الحرب والعسكر والجند، إدارة شؤون الاقتصاد والعمران، وجود مجالس تجتمع لإدارة أمور الحكم، أن تكون هذه المجالس من الأسر الأصلية للبلد، من جنسيات البلد، لأنها لها غيرة على وطنها أكثر، لكن إذا كان له جهتان قد تأخذه العاطفة إلى البلد الآخر، وكذلك الاستعانة بعد الله ﷻ بمن له نفوذ وأثر، من أرباب الأموال كأصحاب التجارات والصناعة والفلاحة، هذا له أثر لا شك.

[٢٩] الصعاليك الفقراء، ومن حاله متوسط، يعني هذا المجلس، مجلس القدامى والشيوخ أرستقراطي، هذه الكلمة "الارستقراطية" مركبة من كلمتين كما ذكر في التعليق، قراطية معناه حكومة، وأرست معناه النبلاء، يعني أرستقراطية حكومة النبلاء، أما كلمة "أرستقراطي" نفسها لها معان فقد تكون لها علاقة بالارستقراطية يقال: رجل أرستقراطي،

ثانيهما مجلس السوقة: يتألف من صغار الماليين تجارهم ومزارعيهم ومن العملة وأصحاب الحرف، ونفوذه ضعيف. وقد يكون وجوده صوريا[٣٠]. فان الحكومات الارستوقراطية لا تنظر إلى أفراد الشعب الذين قعدت بهم قلة ذات اليد عن الظهور في مظهر النعمة والترف إلا بعين الاستخفاف، ولا تراهم إلا آلة مسخرة لقضاء مصالح المترفين وتوفير سعادتهم[٣١]. فوجود العَمَلَة ومن في درجتهم- عندها- ليس وجودا مستقلا وإنما هو تكميل لوجود الأعيان والمثرين[٣٢].

وإلى ذينك المجلسين مجلس القضاء يدعى "مجلس المائة والأربعة" وقضاته من الأشراف. ويعبر عنهم "الأشفاط"- وهي قريبة من الأسباط[٣٣]- وقوتهم التنفيذية مستمدة من ذينك المجلسين[٣٤].

وقد تكون لها معنى أحد أعضاء الطبقة الحاكمة النبيلة، ويقال أيضا: أرستقراطي أي أنيق التصرف، أو متعالٍ في سلوكه، يقال: شاب أرستقراطي يعني له تصرف أنيق أو لن له سلوك متعال، ويقال أيضا لمن يهتم بالموضوعات المترفة البعيدة عن هموم الناس، يقال: رجل ارستقراطي يهتم بأمور مترفة بعيدة عن عموم الناس، ومن الكلام الذي يشتهر بين الناس: لم يعد الفن أرستقارطيا كما كان في الماضي، ومؤنث أرسترقراطي أرستقراطية، يقال: حكومة أرستقراطية، ويقصد بهذه الكلمة أيضا طبقة الأشراف والنبلاء أصحاب الامتيازات، ويقال: أرستقراطية العلم إذا صار خاصا بطبقة العليا في المجتمع، ولا يُسمح لغيرهم، ويقال: أرستقراطية المال، توظيفه في خدمة الطبقة العليا، ويسمى النظام الاستقراطي أيضا إذا كان سياسيا طبقيا واستبداديا، بحيث تتناول الحكومة فيه طبقة من النبلاء والأشراف دون عامة الناس، هذه معان كلها تذكر في هذه اللفظة.

[٣٠] موجود ولكن لا أثر له، لا يقدّم ولا يؤخّر، يعني في الصورة موجود ولكن لا أثر له.

[٣١] أمثال هؤلاء يرون من هم تحت سلطتهم -يعني شعبهم- عبارة عن آلة لتسخير ما يريدون، فهم في خدمتهم.

[٣٢] العملة هم عملة لهؤلاء، يكمّلونهم.

[٣٣] في رجوع الكلمة -قلنا- الفينيقيون من بني كنعان لغتهم العربية، وفيه كلمات ترجع إلى اللغة السامية والحامية في الأصل، تقارب في الألفاظ، الأشفاط والأسباط متقاربتان.

[٣٤] المجلس الأول الذي هو مجلس قدماء الشيوخ، ومجلس السوقة. هذا الذي تتكون منه الحكومة، أولا شكل الحكومة أسرتان: أسرة للشؤون الحربية، وأسرة للعمل والاقتصاد، وفيه مجلسان: مجلس الشيوخ القدماء، الطبقة العليا من النبلاء والأشراف من أصول البلد، وفيهم أصحاب الأموال والتجارات، والصناعة والفلاحة، ومجلس السوقة وفيه صغار الماليين، ولا يكاد يوجد له نفوذ، بل وجوده صوري، وعندهم مجلس القضاء وهو تنفيذي مأخوذ من المجلسين السابقين.

(٢) - الجيش: اتخذت قرطاجنة جيشا ولكن لم تقصد به استعباد المستضعفين وترويع الآمنين والاستحواذ على ثروة أراضي الجانين على المدنية بكونهم عزلا من الصواعق المحرقة. بل كان قصدها هو حفظ حريتها التجارية[٣٥]. لأنها أمة كان شغلها ركوب متون البحار لترويج البضائع وربط الصلات بين الأمم شرقا وغربا ونقل حضارات بعضها إلى بعض. وقد عارضها في سبيلها تلاميذها من اليونان والرومان[٣٦]. وأرادوا صدها عن وجهتها بالقوة العسكرية[٣٧]. فاضطرت إلى اتخاذ جيش لحماية تجارتها[٣٨]. فهو جيش لحفظ الحرية لا لسلبها وجبر الضعيف على الرضا بالعبودية.

لم يتجاوز جيش قرطاجنة خمسين ألفا أكثرها من البربر والإسبان ويمدها زيادة على ذلك أيام الحرب بجنود كثيرة أمراء البربر الذين تربطهم بها معاهدات[٣٩].

وينقسم هذا الجيش إلى ثلاثة أقسام:

١ - الجنود القرطاجنية وهم قليلون وغير حربيين.

٢ - الجنود المرتزقة: وهم من أمم مختلفة. من إسبانيا مشاة، ومن الجزائر الشرقية رماة، ومن الغاليا والكورص وإيطالية وصقلية.

٣ - الجنود الليبية والنوميدية. والأولون مشاة مجبورون على التجنيد. لأن ليبية وطنهم كانت في قبضة قرطاجنة وتحت نفوذها الفعلي. والأخيرون فرسان متطوعون. لأن وطنهم نوميديا لم يكن تحت سيطرة قرطاجنة.

---

[٣٥] لا تعتدي ولا تظلم ولا تستبعد.

[٣٦] اليونان والرومان استفادوا من حضارة الفينيقيين، فعارضوها.

[٣٧] وهم معروفون كانوا أصحاب جند

[٣٨] الحاجة ألجأتها إلى ذلك.

[٣٩] يعني البربر كانوا متوافقين مع الفينيقيين، وكثير منهم كان في جندهم وعند المدلهمّات أمراء البربر يعينون الفينيقيين في حروبهم فيبعثون إليهم بالجنود.

وكلا الجندين الليبي[40] والنوميدي صبار على الشدائد شجاع مقدام له سلاح خفيف: نبل وخنجر وترس[41] من جلد. وليس له سيف ولا مغفر[42] ولا درع[43].

وهذا القسم الثالث هو الذي كون تاريخ قرطاجنة الحربي. خصوصا الجند النوميدي، فلولاه ما ذاقت قرطاجنة لذة الفوز والانتصار، ولا هدد حنبعل رومة ورام فتحها[44].

لذلك كان للنوميديين ميزة لم تكن لبقية الجيش القرطاجني. وكانوا لا يسمحون لها بالتقصير في حقوقهم. وقد ثاروا عليها مرارا لعجزها عن أداء واجباتهم، كان للجيش القرطاجني رؤساء وقواد من أسرة البرقيين، واشتهر منهم عدة قواد باسم هملقار، ومنهم حنبعل وصدربعل وغيرهم ممن خلدت ذكرهم حروب صقلية والحروب البونيقية.

٣ - الأسطول[45]: كان لقرطاجنة أسطول لا تضاهيه أساطيل الدول الأخرى، والبحرية هي العمل الخاص للفينيقيين. وقد دامت لهم السيادة البحرية من غير منازع أمدا طويلا.

كانت سفنهم فلكا كبيرة، وفي كل جانب منها مقاذيف، وإذا ساعدتهم الرياح استعانوا بالشراع، وسفنهم نوعان: تجارية وحربية. أما التجارية فحيزومها مستدير[46].

وقد خاضوا بها قبل قرطاجنة وبعدها عباب البحر الأبيض على طوله، والبحر الأسود حتى بلغوا القفقاس، والمحيط الاطلانتيكي حتى بلغوا انكلترا من جهة، وأغادير من أخرى.

---

[40] هنا تعليق قال: كانت ليبية تطلق على شمال إفريقية، وبعد مجيء الفينيقيين اختصت بما يلي نوميديا شرقا، وليس المراد لبيبة المعروفة اليوم جنوب طرابلس، يعني المعنى أوسع.

[41] وهو الذي يتقي به الضربات.

[42] الذي يوضع على الرأس من حديد، يتقي به صاحبه الضربات على الرأس.

[43] وهو الذي يُتستر به من الحديد.

[44] يعني هؤلاء الطبقة السفلى كان لها قوة الجيش، بحيث صار لها قوة وصار يحسب لها حساب، حتى أن قرطاجنة صارت تهدد روما بل تقصد فتحها.

[45] يعني الحكومة أولا، الجيش ثانيا، ثالثا الأسطول!

[46] يعني شكلها العام، أمام وخلف وعن الجانبين.

كانوا يبعدون السير وليس لهم بوصلة لعدم اختراعها إذ ذاك، فكانوا يهتدون في سيرهم ليلا بنجمة القطب الشمالي[٤٧]، وأكثر مسيرهم بالنهار: ولا يبعدون عن الشاطئ، فإذا أمسى المساء استكنوا بخليج[٤٨].

وقد ينزلون إلى البر ويسحبون مراكبهم في الرمل، فإذا أصبح الصباح استأنفوا سيرهم محاذين للشاطئ[٤٩]. وكانوا يحملون في سفراتهم إلى كل أمة البضائع التي تروج بها.

يستبدلونها بما لتلك الأمة من البضائع[٥٠]، ويتنقلون على هذه الصفة من وطن إلى آخر، حتى أنهم أحيانا لا يرجعون إلى وطنهم إلا بعد سنين.

وقد كان البحر الأبيض المتوسط تحت نفوذ قرطاجنة، وأسست على شواطئه المراسي من خليج طرابلس شرقا إلى المحيط الاطلانتيقي غربا[٥١]، وكان لها على هذا المحيط مراس أيضا إلى قرب أغادير.

وأما المراكب الحربية فهي معقربة الصدر[٥٢]، وكان لقرطاجنة قبل استفحال أمرها[٥٣] سفن ضعيفة من نوع السفينة ذات الخمسين مقذافا[٥٤]. ثم أخذت تترقى في سلم العظمة حتى بلغ أسطولها مائة سفينة. فيها من العملة أربعة وعشرون ألفا غير من يحمل السلاح.

وقد كانت السفن الحربية على أنواع: سفن ذات ثلاثة صفوف من المقاذيف، وذات أربعة صفوف، وذات خمسة.

---

[٤٧] كما قال تعالى {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ }النحل١٦

[٤٨] يعني يتوقفون ويحتمون بالخليج.

[٤٩] بمعنى بالموازاة، ليس قريبا منه ملاصقا لكن يبعد ويمشي بالموازاة فيدري أين سيذهب. وأما في الليل فيهتدون بالنجم.

[٥٠] من باب المقايضة.

[٥١] جهة المغرب يعني.

[٥٢] على شكل عقرب في مقدمتها، ليست دائرية كما هي في التجارية.

[٥٣] قبل أن يقوى أمرها.

[٥٤] العصى التي يجدف بها.

وهذه الأنواع الثلاثة كثيرة. وهناك أنواع ثلاثة أخرى قليلة الاستعمال، وهي ذوات (٦، ٧، ٩)[٥٥].

وجعلت قرطاجنة لصناعة السفن دورا يعمل فيها عملة من المحتلين والمحتمين[٥٦].

---

[٥٥] أي مقاذيف.

[٥٦] هكذا كانت سفنهم يعني طبقات.

[٨ – العمل القرطاجني في العمران والحضارة]

علمت أن الفينيقيين أمة كثيرة الأسفار في البرور والبحار لكسب الثروة بالاتجار .. فلم تكن لها حضارة خاصة بها. ولكن إليها يرجع الفضل في نقل حضارات الأمم بعضها إلى بعض بما تروجه بينها من البضائع المختلفة.

آثارهم تدل على تقليدهم للمصريين في بناء البيوت وحفر القبور، فان قبور الفينيقيين وجدت بالجبال مثل قبور قدماء المصريين، وبيوتهم مبنية بالحجارة، ولها سوار[٥٧] تتصل بالسقف من غير قوس، وخطوط أساساتها مستقيمة.

وأكثر أعمال الفينيقيين في التجارة والفلاحة وبعض الصناعات. وكانوا إذا نزلوا أرضا عرفوا فوائدها الخاصة فاعتنوا باستثمارها[٥٨]. وأرض ليبية أرض فلاحة فاعتنوا فيها بالملاحة علاوة على التجارة والبحرية[٥٩].

وقد جعلت قرطاجنة في نظام دولتها أسرتين: إحداهما للحرب والأخرى للعمل. وكانت أسرة العمل هي أسرة ماغون[٦٠].

ماغون مؤسس هذه الأسرة كان بين سنتي ٥٥٠ – ٥٠٠ (ق. م) وألف كتابا حافلا في الفلاحة، تكلم فيه على الفلاحة وتربية الحيوان من خيل وبغال وبقر وحمام ودجاج ونحل وغير ذلك.

ولأهمية هذا الكتاب لم تستغن عنه رومة رغم عداوتها للبونيقيين وتخريبها لقرطاجنة، فاهتم شيوخ رومة به واستدعوا له مترجمين ترجموه إلى اللطينية، ومن حكمهم الفلاحية: " يجب أن تكون الأرض أضعف من الفلاح. لأنه إذا أراد أن يقاومها فتغلبت عليه حطمته".

---

[٥٧] الأظهر أسوار، والهمزة ساقطة من الطبعة.

[٥٨] هذا مما يخصهم، إذا نزل أرضا يتعلمون ويعرفون ما هي خصائص هذه الأرض ليستثمروها بما يتناسب معها.

[٥٩] كانوا أصحاب ذكاء وفطنة، وحنكة وتجربة.

[٦٠] أسرة العمل ماغون، وأسرة الحرب حنونون.

وقد اتخذوا للدراس[٦١] آلة وعمموا نشر الحبوب المعروفة[٦٢] بالوطن البربري وجلبوا له بذورا أخرى مثل الكتان لم تكن معروفة به من قبل.

وكان بليبية (بالمعنى العام)[٦٣] أشجار ذات ثمار إلا أنها طبيعيه، فاعتنى البونيقيون بغراستها وجلبوا ضروبا أخرى من الأشجار منها النخيل والتين والزيتون والرمان والجوز واللوز والكرم[٦٤].

وزرعوا البقول[٦٥] والخضر حوالي المدن، وعصروا الزيتون والخمور وهم أول من روج الخمر بين البربر[٦٦]، وأول من أفادهم الغراسة.

ازدهى الوطن على عهدهم بحقول الحبوب والخضر وجنات النخيل والأعناب وبساتين التين والزيتون وضروب الفواكه.

وقد شارك في هذه الأعمال العمرانية كل الطبقات البونيقية: أرباب الأموال الواسعة يقتطعون الأراضي الشاسعة ويبنون بها القصور وليقضوا بها بعض فصول العام. وصغار الفلاحين يشتغلون بما حوالي المدن من الأراضي الصالحة فيعمرونها على نسبة مقدرتهم المالية.

وسوى عناية القرطاجنيين بالفلاحة وتربية المواشي كانوا يعتنون باستخراج المعادن من حديد ونحاس ورصاص وغيرها. ويصنعون منها الآلات وضروب الزينة من حلي[٦٧] وأقراط.

---

[٦١] درس الأرض وزرعها.

[٦٢] يعني الحبوب التي كانت معروفة في الوطن البربري عمموها في أراضيه، وجاؤوا له ببذور أخرى من خارج بلدهم، منها الكتان، لم يكن معروفا، فجاؤوا بزرعه من خارج.

[٦٣] الذي ذكرناه سابقا، شمال إفريقيا.

[٦٤] هذه أشجار لم تكن بأرض البربر وجاء بها البونيقيون.

[٦٥] التي ثمرتها داخل الأرض.

[٦٦] يعني "ذوّقه تستعمره" -ابتسامة-

[٦٧] الحلي الذي تتحلى به المرأة، والأقراط التي توضع في الأذن، فإذن إضافة إلى التجارة البحرية، والفلاحة وتربية المواشي، كانوا يستخرجون المعادن.

وكانوا ينحتون الحجارة النفيسة، وأخذوا عن المصريين صناعة الزجاج فأتقنوها وصنعوا منها الأواني الرفيعة ولونوها بألوان قوس قزح.

وكانت لهم يد في الحياكة[٦٨] والصباغة ودباغة الجلود، وكان لهم من الصناعات الدقيقة النقش على الصخور والخشب، ونحت الدمي وغيرها من العاج والعظام، وقطروا العطور، وركّبوا الأدوية[٦٩].

---

[٦٨] وهي من النسيج.

[٦٩] يعني كانت حضارة متقدمة جدا وقوية، وكانت بهذه الأرض.

نكتفي عند عنوان الحروب -وقانا الله شر الحروب-